

مفهوم الطبقة بين المحدثين والأدباء

محمد أمين *

1 - العلاقة بين علوم اللغة والشريعة:

قامت حضارة العرب وعلومهم حول القرآن الكريم، فالقرآن هو المحور الأساس، والبؤرة التي قامت حولها كل العلوم. يقول الإمام الشافعي "رحمه الله": "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا".

أدرك الجيل الأول من الصحابة والتابعين علاقة الألفاظ باللغة والقرآن والحديث، وبدأوا بتفسير القرآن الكريم، واحتجوا بالشعر واللغة، وبين علوم اللغة والشريعة رابط قوي، لا ينفصم بأي حال من الأحوال، رابط قلما يوجد في حضارات العالم بين لغاتها ودياناتها، وأصبح متعذراً على المسلمين أن يفكروا في فصل اللغة العربية عن علوم الإسلام، أو أن يفكروا في علوم الإسلام وعلوم الشريعة دون استخدام اللغة العربية.

أملى حفاظ اللغة من اللغويين المتقدمين بإسنادهم كلاماً عن العرب فيه غريب يحتاج إلى تفسير، وكانت طريقتهم في الإصلاح والجرح والتعديل هي طريقة المحدثين سواء بسواء؛ لأن علم الحديث واللغة يجريان من واد واحد.

2- مفهوم الطبقة في اللغة:

للطبقة في اللغة العربية عدة معان، أبرزها: -

(1) الطباق غطاء كل شيء، والجمع أطباق، وقد طابقه مطابقة، وطباقاً ساواه والمطابقة الموافقة، وطابقت بين الشيين إذا جعلتهما على حذو واحد، وألزقتهما قال تعالى:- (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً) (1)، أي: مطبّق بعضها على بعض. وفي الحديث: "اللهم اسقنا غيثاً طباقاً" (2) أي: مائلاً للأرض مغطياً لها.

(2) يأتي الطباق بمعنى العضو، ومنه حديث علي رضي الله عنه:- "إنما أمرنا في السارق بقطع طابقه" (3)، أي: يده.

(3) يأتي الطباق بمعنى القطيع، وفي الحديث: "إن مريم -عليها السلام- جاءت فجاءها طبق من جراد فصادت منه" (4)، أي: قطيع من الجراد، ومنه الجماعة من الناس يعدلون جماعة مثلهم في مراتبهم، وقال ابن الأعرابي: الطباق: الأمة بعد الأمة، والطبقة في العادة تساوي جيلاً، أو عشر سنين أو عشرين سنة، والناس طبقات أي: منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض.

(4) يأتي الطباق بمعنى القرن من الزمان، ومنه قول العباس رضي الله عنه- يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم(5):

تنقل من صالِب إلى رحم إذا مضى عالم بدأ طبق

أي: إذا مضى قرن بدأ قرن، وقيل للقرن طبق لأنهم طبق للأرض ثم ينقرضون، ويأتي طبق آخر، وكذلك طبقات الناس كل طبقة طبقت زمانها.

(5) يأتي الطباق بمعنى الحال، يقال: كان فلان من الدنيا على طبقات شتى أي: حالات قال تعالى:- (التركيب ن طبقاً عن طبق)(6)، أي حالاً- عن حال يوم القيامة. قال الزمخشري: "أي: حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة من قولهم: هو على طبقات، وفي المثل "وافق شن طبقة" يضرب لكل اثنين أو أمرين جمعتهما حالة واحدة، اتصف بها كل منهما، وأصله: إن شناً قبيلة من عبد قيس، وطبق حي من إياد، اتفقوا على أمر، ف قيل لهما ذلك لأن كل واحد منهما وافق شكله ونظيره".

وأما معنى "الطبقة" في الاصطلاح فإنها تختلف من علم إلى علم، والعرب ألفوا في طبقات شتى من الناس كالمحدثين والمفسرين والفقهاء والحكماء والأطباء والأعيان والشعراء والعميان وغير ذلك، وأصبح مفهوم "الطبقة" يرتبط بالعلم الذي ورد فيه.

لقد وجد علم الرجال أو علم الطبقات عند العرب خاصة، حيث تفردوا به، وتخصصوا فيه، وظهر هذا الفن منذ زمن مبكر عند العرب، ويعد من إبداعات الحضارة العربية الإسلامية، ويعد كذلك فناً فريداً من الفنون العلمية التي لا نجد لها شبيهاً في آداب أية أمة من الأمم الأخرى إلا في عصرنا الراهن.

ولكثر ما ألف في علم الرجال، أو علم الطبقات، نقف عند ثلاثة فروع من علوم العرب لنستخلص منها مفهوم "الطبقة"، ونقسم الحديث إلى قسمين اثنين:

أولاً: علم الطبقات:

اهتم كثير من علماء العرب بعلم "الطبقات" حتى صار هذا الفن علماً له قواعده وضوابطه، فقد اهتم بعضهم بالنحويين واللغويين: ترجموا لهم، وبيّنوا مراتبهم، وطبقاتهم، ودونوا أخبارهم، وأحصوا كتبهم وأثارهم، وحددوا مواليدهم، وأعمارهم، ووفياتهم، وتتبعوهم في رحلاتهم، وبسطوا القول في مذاهبهم وآرائهم، وتعرضوا لنقدهم في كثير من الأحيان، ومما ألف في هذا العلم:-

- 1- كتاب طبقات النحويين البصريين وأخبارهم للمبرد (ت 276 هـ).
- 2- مراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي (عبد الواحد بن علي) ت 351 هـ.
- 3- طبقات النحاة البصريين لأبي سعيد السيرافي (ت 368 هـ).

- 4- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت380هـ).
- 5- طبقات النحاة واللغويين لأبي عبد الله اليميني (ت400هـ).
- 6- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت577هـ).
- 7- إنباه الرواة على أنباه النحاة للوزير جمال الدين أبي الحسن القفطي (ت724هـ).
- 8- البلغة في طبقات أئمة اللغة لمحمد بن يعقوب الفيروز ابادي (ت816هـ).
- 9- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ).

ولوضع كتب طبقات النحويين واللغويين هذه فوائد قيّمة. يقول أبو الطيّب اللغوي: "قد غلب الجهل وفسا، حتى لا يدري المتصدر للعلم من روى ولا من رُوِيَ عنه، ولا من أين أخذ علمه، وحتى إن كثيراً من أهل دهرنا لا يفرقون بين أبي عبيدة، وأبي عبيد، وبين الشيء المنسوب إلى أبي سعيد الأصمعي، أو أبي سعيد السكري، أو أبي سعيد الضرير، ويحكون المسألة عن الأحمر، فلا يدرون: أهو الأحمر البصري؟ أو الأحمر الكوفي؟ ولا يصلون إلى العلم بمزية ما بين أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، ولا يفصلون بين أبي عمر عيسى بن عمر الثقفي، وبين أبي عمر صالح بن أبي إسحاق الجرمي، ويقولون: "قال الأخفش، فلا يفرقون بين أبي الخطاب الأخفش، وأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش البصريين، وبين أبي الحسن علي بن المبارك الأخفش الكوفي، وأبي الحسن علي بن سليمان الأخفش صاحب محمد بن يزيد وأحمد بن يحيى، وحتى يظن القوم أن القاسم بن سلام البغدادي ومحمد بن سلام الجمحي صاحب الطبقات أخوان" (7)، من خلال هذا النص، وغيره من النصوص نعلم أن الجهل بالرجال كان من أهم الأسباب الداعية إلى وضع كتب الطبقات في مختلف العلوم.

وظهرت مؤلفات متعددة في مجال الأدب لكثرة الشعراء، وتنوع بيئاتهم، وأصبح التعريف بهم، والترجمة لهم فناً قائماً بذاته، وعرفت المكتبة الأدبية كثيراً من الكتب التي تحمل لفظ "الطبقة" أو ما يشبهه، منها: -

- 1- طبقات الأدباء لابن الأنباري.
- 2- طبقات الشعراء لابن المعتز.
- 3- طبقات الشعراء لابن النحاس.
- 4- طبقات الشعراء لدعلج.
- 5- طبقات الشعراء لأبي بكر الصولي.

6- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت 237هـ).

7- طبقات الشعراء لأبي الحسن الزياتي (ت 243هـ).

8- طبقات الشعراء لأبي المنعم.

9- طبقات الشعراء لإسماعيل بن أبي محمد اليزيدي.

10- الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت 276هـ).

11- الشعر والشعراء، لابن السراج.

12- الشعر والشعراء لأبي عبيدة (ت 210هـ).

13- المؤلف والمختلف للآمدي.

14- معجم الشعراء للمرزباني.

والغاية من وضع "طبقات الشعراء" والترجمة لهم، هو الحرص على اللغة التي يحتج بها في كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم، هو محور العلوم كلها، وفهمه يتوقف على علوم اللغة. والشعر هو أصل العلوم العربية، ولا يكتسب قيمته إلا من خلال وظيفته الدينية، يقول صاحب الزينة: "ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لبطل الشعر"، وكان الغرض من جمع الشعر، والترجمة للشعراء دينياً وفنياً؛ لأن الدين والشعر متلازمان، فالشعر فيه تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. يقول ابن قتيبة: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- (8)، وكان غرض ابن سلام تمييز الصحيح من الموضوع من الشعر، يقول: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه، ولا حجة في غريبة، ولا- أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، ولم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن صحفي" (9).

وكان القرآن الكريم من أجل المسائل، وقد تمحورت حوله جميع العلوم الأخرى، فالحديث النبوي الشريف شرح للقرآن، واللغة العربية هي الأداة الناجعة لفهم القرآن والسنة، وعلم الحديث وصل إلينا عن طريق الرواية الشفوية عن الرجال، لذلك وجد عند العرب علم تفردوا به، وتخصصوا فيه، وهو ما يُعرف بعلم الرجال، وكانت مسألة الصدق والأمانة والثقة من أهم الأسباب الداعية إلى وضع كتب التراجم والطبقات، وكانت طبقات المحدثين أول هذا الفن ظهوراً، وذلك لحاجة العلماء المعنيين بتدوين الحديث، ومعرفة

سير رجال الأسانيد، أو رواة الحديث بهدف التحقق من صدقهم طبقاً لمنهج "الجرح والتعديل"، لهذا السبب اهتم العلماء بالترجمة للمحدثين، ورواة الحديث، ومن ذلك:

- 1- كتاب الطبقات للواقدي (ت 207 هـ).
- 2- كتاب طبقات الفقهاء والمحدثين للهيثم بن عدي (ت 207 هـ).
- 3- كتاب الطبقات لمسلم بن حجاج (ت 271 هـ).
- 4- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت 230 هـ).
- 5- الطبقات الصغرى لمحمد بن سعد (ت 230 هـ).
- 6- كتاب الطبقات لخليفة بن خياط (ت 240 هـ).
- 7- كتاب طبقات الرجال لأبي عبد الله محمد بن خالد البرقي.
- 8- كتاب طبقات المحدثين لسراج الدين عمر بن علي بن الملقى الشافعي (ت 804 هـ).
- 9- الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- 10- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ت 463 هـ).
- 11- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

ولوضع كتب طبقات المحدثين كذلك فوائد قيّمة، وكل باحث في الحديث محتاج إلى هذا الفن، يقول ابن الصلاح: "والباحث الناظر في هذا الفن يحتاج إلى معرفة المواليد والوفيات ومن أخذوا عنه، ومن أخذ عنهم" (10)، وابن عبد البر يرى أن الصحابة هم أولى الناس بالمعرفة؛ لأنهم نقلوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعوها، وهي الركن الثاني بعد كتاب الله في قيمتها التشريعية والدينية" (11).

إن أول من أطلق لفظ (طبقة) من النحويين على كتاب له هو المبرد، ولم يصل إلينا هذا الكتاب لنعرف طبيعته، وأول كتاب وصل إلينا في النقد العربي يحمل لفظ "طبقة" هو كتاب "طبقات فحول الشعراء" ونجد اللفظ مستعملاً قبله، يقول الأصمعي عن ابن الأحمر الباهلي: "ليس بفحل، ولكن دون هؤلاء، وفوق طبقاته" وابن الأحمر جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول شعراء الإسلام مع كعب بن جعيل وسحيم بن وثيل وأوس بن مغراء. وأول كتاب يحمل لفظ "طبقة" عند المحدثين هو "كتاب طبقات الفقهاء والمحدثين" للهيثم بن عدي (ت 207 هـ)، وأول كتاب وصل إلينا في الفقهاء هو كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت 230 هـ).

وهذه الكتب، وإن كانت متفقة في الموضوع والغاية، وهو خدمة القرآن والسنة فإنها

مختلفة في المنهاج، وقد انقسم العلماء عند الترجمة إلى قسمين اثنين: -

1- قسم بني مؤلفه على أساس الطبقات والمدارس.

2- قسم بني مؤلفه على حروف المعجم.

يمثل القسم الأول أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، ومحمد بن سلام الجمحي ومحمد بن سعد، ويمثل القسم الثاني جمال الدين الفقطي، وجلال الدين السيوطي وغيرهما من النحويين، فالأول وضّح منهجه في مقدمة كتابه، فقال: "فقد تعين إذا ذكرُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذكرُ مختصر من خبره، ثم أتبعه بذكر أبي الأسود الدؤلي وشيء من أخباره، ثم أذكر النحاة بعد ذلك على حروف المعجم ليسهل تناول أخبارهم لطالب ذلك(12)، والسبب الذي حمله على البدء بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - وأبي طالب رضي الله عنه - وأبي الأسود الدؤلي هو السبق الزمني إلى نشأة هذا العلم على يديهما، وقد يكون لتشييعه. وأما جلال الدين السيوطي فقد بنى كتابه على حروف المعجم، مبتدئاً بالمحمديين والأحمديين، وهذا لحيه النبي صلى الله عليه وسلم -، وتبركاً باسمه الأ-عظم، ولما انتهى من الترجمة للمحمديين والأحمديين ترجم للنحاة واللغويين حسب حروف المعجم.

وأما ابن قتيبة فقد بنى كتابه على أساس زمني، بدأ التراجم بامرئ القيس، قال في ترجمته: وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى.(13)، وختم بالترجمة لأشجع السلمي المتوفى سنة 195هـ. والملاحظ أن ابن قتيبة لم يضبط هذا الترتيب الزمني ضبطاً جيداً، وإنما يقدم ويؤخر، فلم يراع لا- أساس التقسيم الطبقي، ولا الترتيب الزمني، ولا الترتيب المعجمي، وابن المعتز خصص كتابه بالشعراء المحدثين، وقد ذهب النقاد إلى أن الشعراء أربع طبقات: جاهلي قديم، ومخضرم، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومحدث، ثم صار المحدثون طبقات طبقات: أولى وثانية على التدرج.. وأن المحدث الأول دونهم في المنزلة.(14)، بدأ كتابه بإبراهيم بن هرمة، والسبب في ذلك هو أنه آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم.(15)، ثم ذكر بعده بشار بن برد، وهو أشعر المحدثين، والمحدثون لا يحتج بأشعارهم، وختم الكتاب بالترجمة لبعض النساء.

كانت غايات المؤلفين في الطبقات والتراجم واحدة هي خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وسنلاحظ فيما يلي تداخل مفهوم "الطبقة" أو تكامله، خاصة عند محمد بن سعد الزهري، وعند محمد بن سلام الجمحي، فالأول يترجم للذين نقلوا حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، والثاني يترجم للشعراء الذين يستشهد بأشعارهم في تفسير كتاب الله -عز وجل-، ولكل واحد منهما ضوابط معينة تتداخل وتتكامل؛ لأن الهدف واحد.

ثانياً: ضوابط التصنيف حسب الطبقات:

سلك العلماء عدّة طرق لتصنيف الرجال وأسسوا ضوابط ومقاييس، عيّنوا على أساسها طبقة الرجل، ومن هذه الضوابط: -

1- ضابط الدين:

الدين ضابط مهم للحديث على الرجال، فالقرآن الكريم هو كلام الله -تعالى-، وهو محور العلوم كلها. واللغة العربية أمر ضروري لفهم القرآن، وفصل علوم اللغة عن علوم الشريعة أمر مستحيل، فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، بها يتم الفهم العميق للقرآن والحديث، وبها يتم استنباط الأحكام، روى عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - أنه قال: "لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة" (16)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم". (17)، وعلم اللغة في الدين وهو من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة، قال بعض الشعراء (18):

فرض كفرض الصلاة

حفظ اللغات علينا

الإ بحفظ اللغات

فليس يضبط دين

وذهب ابن جني إلى أن أكثر: "من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه، واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها" (19)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل". (20)، فسمي اللحن ضلالاً، والذي يجهل دلالات الألفاظ يسيء فهم الكتاب والسنة، فإذا نظر في أمور الدين وليس هو من أهل علماء اللغة، هلك وأهلك الناس.

والمحدثون ينطلقون من السبق إلى الإسلام، يقول الله -تعالى-: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) (21)، وفي "الرياض المستطابة" سئل أبو زرعة عن جملة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ومن يحصيه؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من أصحابه، ممن روى عنه وسمع، فقيل له: هؤلاء أين كانوا؟ وأين سمعوا؟ قال: أهل المدينة ومكة وما بينهما، ومن الأعراب، ومن شهد معه حجة الوداع، كل رآه، وسمع منه (22).

والطبقة عند المحدثين القوم المتعاصرون، إذا تشابهوا في السن وفي الإسناد (أي الأخذ عن المشايخ) فهي بمعنى كلمة (جيل) ويختلف اعتبار الراوي من أي طبقة هو باختلاف الجهة، والأمر الذي نصنفه على أساسه، وعند هذا قرب شخصين يكونان من طبقة واحدة لتشابههما بالنسبة إلى جهة، ومن طبقتين بالنسبة إلى جهة أخرى، لا يتشابهان فيها، فأنس بن مالك الأنصاري وغيره من أصاغر الصحابة، دون أبي بكر ونحوه من أكابر الصحابة بطبقات، إذا نظرنا إلى تفاوتهم في السبق إلى الإسلام، لكنه يعدّ معهم من طبقة واحدة هي عموم الصحابة، إذا نظرنا إلى اشتراكهم في أصل صفة الصحبة، وعلى هذا فالصحابة بأسرهم طبقة أولى، والتابعون طبقة ثانية، وأتباع التابعين طبقة ثالثة، وأتباع أتباع التابعين طبقة رابعة، وأتباع أتباع التابعين طبقة خامسة.

ومفهوم "الطبقة" عند المحدثين مأخوذ من بعض الأحاديث، فقد روى أبو سعيد الخدري عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: "ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، منهم من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً، ويحيا كافراً، ويموت مؤمناً" (23)، ومعنى هذا أن الناس في هذه الحياة على أربع طبقات من حيث حياتهم الدينية.

ونجد لفظ "طبقة" في خبر آخر رواه العباس بن محمد الدوري (ت 271هـ) يقول فيه: "انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - إلى ستة نفر من الصحابة - رضي الله عنهم -: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، فهؤلاء طبقات الفقهاء، وأما طبقات الرواة فستة نفر: ... وأما طبقات أصحاب الأخبار والقصص فستة ... وأما طبقات التفسير فستة أيضاً ... وأما طبقات خزائن العلم ... وأما طبقات الحفاظ فستة" (24).

والحديث واضح في أنه سمي كل واحد من الستة "طبقة"، وهؤلاء كلهم يجمعهم علم الدين، من تفسير وحديث وفقه وقراءة ورواية، ومن هنا نرى أن مفهوم لفظ "الطبقة" له مدلول ديني، وله دلالة على مذهب من المذاهب في الفقه أو التفسير أو الرواية يعرف بها صاحبه.

وهذا المعنى هو الذي قصد محمد بن سعد في كتابه "الطبقات الكبرى" فهو يقصد مراتب الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ونجد قريباً من هذا المعنى الديني عند الوزير جمال الدين القفطي في كتابه "إنباه الرواة"، حيث بدأ بعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، ثم عاد إلى الترجمة حسب حروف المعجم، وعند السيوطي، إذ بدأ بالترجمة للمحمدين أولاً، والأحمديين ثانياً، ثم رجع إلى الترجمة حسب حروف المعجم.

ب) ضابط العدد:

يختلف عدد الرجال في الطبقة الواحدة من علم إلى علم، فهو تارة لا يحدد بعدد معين، وتارة يحدد تحديداً دقيقاً، فأفراد الطبقة عند ابن سعد يتغير من طبقة إلى أخرى، فالطبقة الأولى من أهل الكوفة مثلاً من الذين رروا عن الصحابة عددهم كثير. وأما الثانية فعدد أفرادها نحو (69)، والطبقة الثالثة نحو (123)، والطبقة الرابعة نحو (181)، والطبقة الخامسة نحو (52)، والطبقة السادسة (49)، والسابعة (63)، والثامنة (43)، والتاسعة (128)، فابن سعد لم يقيّد نفسه بعدد معين في كل طبقة، واختلاف العدد في الطبقة يعود إلى المنهاج الصارم الذي اتخذ ل نفسه، فهو يترجم للتابعين الذين رروا الحديث وفق منهاج معين، فلا يزيد في العدد الذي حصل عليه، ولا ينقص منه.

وأما النحويون فهم أيضاً لم يقيّدوا أنفسهم بعدد معين في كل طبقة، فأبو بكر الزبيدي

مثلاً جعل نحاة البصرة في عشر طبقات، والنحويين الكوفيين في ستة، وجعل في الطبقة الأولى من نحاة الكوفة ثلاثة، وفي الثانية واحداً فقط هو النسائي، وفي الثالثة تسعة، وفي الرابعة خمسة، وفي الخامسة واحداً فقط هو ثعلب، وفي السادسة ستة.

وقد يتساءل المرء: لماذا جعل النسائي وحده في الطبقة الثانية، وأحمد بن يحيى وحده في الطبقة الخامسة، والذي يظهر أنه ربما كان يضع المقياس أولاً، ثم يرتب فيه من هو أهل له، وفي الطبقتين المذكورتين لم يجد إلا- واحداً، ونجد إشارة إلى المفهوم عند أبي الطيب اللغوي، حيث يقول: "إن أكثر الناس الرؤساء الجهال، والصدور الضلال، وهذه فتنة الناس على قديم الأيام، وغابر الأزمان، فكيف بعصرنا هذا، وقد وصلنا إلى كدر الكدر، وانتهينا إلى عكر العكر، وأخذ هذا العلم عمين لا- يعلم ولا يفقه، يفهم الناس مالا يفهم، ويعلمهم عند نفسه وهو لا يعلم..." (25)، ثم يعطى على من كانت حاله مثل هؤلاء، فيقول: "فالواحد من هؤلاء في طبقة من الجهل لا تدرك بالمقياس، ولم يهتد إليها الخليل حين طبق الناس" (26)، ومعنى قوله: "طبق الناس" أي: جعلهم في طبقات، ولعله يقصد بالناس النحويين واللغويين، وأورد أبو الطيب قول الخليل، وهو:

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاتبعوه.

ومنهم من يدري ولا يدري أنه يدري فذاك ضال فأرشدوه.

ومنهم من لا يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه.

ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك جاهل فاحذروه (27).

وواضح أن الخليل قسّم الناس إلى أربع طبقات، ونظر إليهم من حيث الكفاءة العلمية، مع أنه لم يصرّح بلفظ الطبقة.

وأما ابن سلام، فقد بدأ كتابه بالحديث على شعراء العصر الجاهلي، وهم عنده في عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء، فالمجموع أربعون شاعراً جاهلياً، ومثلهم طبقات الإسلام: عشر طبقات، كل طبقة أربعة رهط متكافئون ومعتدلون، ومجموع هؤلاء أربعون أيضاً، وهذا منهج دقيق وضّحه بقوله: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة متكافئون ومعتدلون" (28)، إلا أنه لم يذكر القواعد التي بنى عليها اختياره لشعراء كل طبقة، ولذا مفهوم الطبقة عنده يكاد يكون غامضاً، لكن في عباراته ما يوحي بأنه جعل الكثرة سبباً للتفاضل، ومن ذلك قوله: "الطبقة الرابعة، وهم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة" (29)، ويقول: "وكان الأسود شاعراً فحلاً، وله واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر، ولو شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته" (30)، ويقول: "وأوس نظير الأربعة المتقدمين، إلا أنا اقتصرنا في الطبقة على أربعة رهط" (31)، ولم يقل لماذا جعل الطبقة أربعة، ولم تكن خمسة أو ستة أو أقل أو أكثر.

إن تقسيم الشعراء إلى طبقات موجود قبل ابن سلام، فكان الحذاق يقولون: الفحول في الجاهلية ثلاثة: زهير والنابعة والأعشى، وقيل: أشعر الناس أربعة: امرؤ القيس، والنابعة، وطرفة، ومهلل. ويقول الجاحظ: والشعراء عندهم أربع طبقات: الفحل الخنذيذ، والشاعر المفلق، والشاعر، والشعورور. وفي هذا يقول شاعر قديم:

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعت أني مفحم لا أنطق (32)

فقضية جعل أربعة من الشعراء عند ابن سلام في طبقة واحدة قضية فنية، يدل على ذلك قوله: "إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر، والرواية عمّن مضى من أهل العلم إلى رهط أربعة، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة، ثم اختلفوا فيهم بعد" (33)، فالمؤلف يشير إلى الجهد الذي قام به شخصياً: استعمل عقله، وفحص ودقق وتأمل، ولم يكتف بعمله هو، بل استعان بالرواية عمّن مضى من أهل العلم بالشعر، وبالأسلوبين: التأمل والرواية توصل إلى أربعة رهط هم أشعر العرب، ويرى أن هؤلاء الأربعة قد يتفق عليهم أهل العلم بالشعر وقد يختلفون، يقول: "وسنسوق اختلافهم، ونسمي الأربعة، ونذكر الحجة لكل واحد منهم، وليس تبدئنا أحدهم في الكتاب تحكّم له، ولا بد من مبتدأ، ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى" (34).

فابن سلام يستعمل لفظ "طبقة" استعمالاً فنياً، ومعنى الطبقة عنده أن هؤلاء هم أشعر العرب في مذهب من مذاهب الشعر، أو في نهج من مناهجه، أو في ضرب من ضروبه، فقوله: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات..."، نستخلص منه أن التشابه هو أساس نظر ابن سلام، ولا يتشابه شاعران إلا في شيء واحد، هو مذهبهما في الشعر، أو منهجهما الذي يميّز به كل واحد منهما.

كانت فكرة "الطبقة" هي القالب الذي أراد ابن سلام أن يطرح من خلاله أفكاره، وأخباره الأدبية والنقدية، فارتضى بفكرة الطبقات وسيلة للتعبير عن غرضه، وكان أمامه ثلاثة نماذج:

الأول: أنموذج الفكرة الطبقيّة الدينية.

الثاني: أنموذج الطبقة الفنية.

الثالث: أنموذج الواقع الطبقي الاجتماعي.

"فالظروف الاجتماعية قائمة على الطبقات من الخليفة إلى آخر فئة من الشعب، ولم تكن طبقات مرنة يؤدي بعضها إلى بعض، بل كانت كلها مغلقة، ولا تسمح بانتماء الغريب إليها إلا في ظروف خاصة، وتحت ظروف غير طبيعية" (5).

والسؤال هنا؛ هو: بأي طبقة تأثر ابن سلام.

للرد على هذا السؤال نقول: إنه تأثر بكل الطبقات: تأثر بالطبقة الاجتماعية، يظهر ذلك

في كونه لم يترجم لعدد من الشعراء، منهم: عمر بن أبي ربيعة والكميت والطرماح، وشعراء الصعاليك في العصرين: الجاهلي والإسلامي، وهذا له علاقة بالجانب السياسي، كما أرى أنه تأثر بالطبقة الدينية، ويظهر ذلك من اختياره لفظ "طبقة" لفكرة تأليف كتب الطبقات كانت معروفة قبل ابن سلام، فالواقدي له كتاب الطبقات، والهيثم بن عدي له كتاب طبقات الفقهاء والمحدثين، والاثان من وفيات 207هـ، وإذا كان الأول في الترجمة للصحابة والتابعين، والثاني في الترجمة للفقهاء والمحدثين، فإن كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام هو أقدم ما وصل إلينا من كتب طبقات الشعراء، وأما كون عدد الطبقات "عشرة" لا يزيد ولا ينقص، فأرى أن المسألة دينية أيضاً، فأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- المبشرون بالجنة عشرة، وأفضل الأيام عند الله العشرة الأواخر من رمضان، والعشرة الأوائل من ذي الحجة.

وأما تأثيره بأنموذج الطبقة الفنية فيظهر عنده من تحديد الرقم بعشر طبقات، وبجعله في كل طبقة أربعة، متشابهون متكافئون، وأن تصنيف الشعراء في طبقات كان معروفاً قبله، أشار إليه الأصمعي والخليل بن أحمد وغيرهما، وأشار إلى أن أبا زيد القرشي سار على هذا المنوال، فحصر عدد الطبقات في سبعة، وفي كل طبقة سبعة شعراء.

(ج) ضابط الزمان:

الزمن يعدّ مقياساً لوضع الرجل داخل الطبقة، إلا- أن هذا الضابط وحده لا يكفي، فيضاف إليه ضابط آخر، هو ضابط الكفاءة العلمية، وقد اختلف النحاة واللغويون في تقديم شخص على شخص انطلاقاً من وفاة الرجل وعلمه، فقد اختلفوا في تقديم ميمون على عنبسة، وفي تقديم عنبسة على ميمون الأقرن في الفضل والعلم وسعة الرواية، وهو في الطبقة الثالثة، فإنه يروي عن أبي الأسود وأبو الأسود عن علي كرم الله وجهه، وهذه الطبقة حسبما حصر الرواة، ممن أخذ عن أبي الأسود: عنبسة بن معدان هذا، وميمون المعروف بالأقرن، وعطاء بن أبي الأسود. وأبو نوفل بن أبي عقرب، ويحيى بن يعمر، وقتادة بن دعامة السدوسي، وعبد الرحمن بن هرمز، ونصر بن عاصم، كل هؤلاء أخذوا عن أبي الأسود، وتفاوتت مقاديرهم في العلم بهذا النوع من العربية (35).

وميمون الأقرن من الطبقة الثانية، كان أبو عبيدة يقدمه على عنبسة بن معدان الفيل رفيقه في الأخذ عن أبي الأسود، وكان يقول: أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، ثم ميمون الأقرن، ثم عنبسة الفيل، ثم عبد الله بن أبي إسحاق، لأن عصرًا واحدًا جمعهم، وإلا فقد تقدّم زمان بعضهم على بعض في الأخذ والطلب، وعبد الله بن أبي إسحاق ليس من هذه الطبقة إلا أنه أدرك آخر عصرهم (36).

وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي في أول الطبقة الرابعة من نحاة البصرة لأنه أقدم أخذًا فيمن شاركه في الطبقة وأقدمهم موتًا، والذين شاركوه في العصر، وعدوا من الطبقة

الرابعة أبا عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، وحماد بن سلمة، وحماد بن الزبرقان، ومسلمة بن عبد الملك، وكان لتقدمه في وقت الطلب زاحم عنبسة وميمونا الأقرن في آخر عصرهما، فجعل في أول هذه الطبقة (37).

ولمعرفة وفيات الصحابة والمحدثين والعلماء ومواليدهم ومقادير أعمارهم فضل كبير جداً، روي عن سفيان الثوري أنه قال: "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ" (38). وروي عن حفص بن غياث أنه قال: "إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، يعني أحسبوا سنه وسن من كتب عنه" (39).

تدخل عنصر الزمان في بناء "الطبقات الكبرى" فابن سعد جعل السابقة إلى الإسلام نقطة الانطلاق الزمني، فالكتاب يشمل مساحة زمنية شاسعة، تبتدئ من ميلاد النبي - صلى الله عليه وسلم-، وينتهي عند آخر مترجم له، وهو محمد بن بكر، ويحيى بن عثمان وقد توفيا معا سنة 238هـ.

تبدأ الترجمة عند ابن سعد بذكر اسم الرجل كاملاً، مع ذكر اسم أبيه وأمه وإخوته كقوله: "عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم سعيد بن سهم، وأمه ريطة بنت منيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم ... ويتحدث عن زمان إسلامه، ويذكر بعض ما روى من الحديث، ويختم كلامه بتحديد مكان الوفاة وزمانه وعمره، وعمّن روى الحديث، كقوله: "أخبرنا محمد بن عمر، قال: توفي عبد الله بن عمرو بن العاص بالشام سنة 65هـ، وهو يومئذ ابن 72 سنة، وقد روى عن أبي بكر وعمر (40)، وليس هذا في كل الأحوال، لكنه هو الغالب في التراجم الأولى من الكتاب.

يعتمد محمد بن سعد على المنهج التاريخي في نقد الرجال، كقوله: أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، قال: رأيت عمر وعثمان يصليان المغرب في رمضان إذا نظرا إلى الليل الأسود ثم يفطران بعد (41).

ويقول: "وأخبرنا معن بن عيسى عن مالك عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن أن عمر وعثمان كانا يصليان المغرب في رمضان، ولم يقل: رأيت" ويعلق على هذا بقول شيخه الواقدي: "وأثبتهما عندنا حديث مالك، وأن حميدا لم ير عمر، ولم يسمع منه شيئاً، وسنه وموته يدل على ذلك، ولعله قد سمع من عثمان؛ لأنه كان خاله، وكان يدخل عليه كما يدخل عليه ولده صغيراً وكبيراً، ولكنه قد روى عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ومعاوية بن أبي سفيان، وأبي هريرة والنعمان بن بشير، وأمه أم كلثوم بنت عقبة، وكان ثقة عالماً كثير الحديث، وتوفي حميد بن عبد الرحمن بالمدينة سنة 95هـ وهو ابن 73 سنة".

ويعلق على هذا الخبر بقوله: "وقد سمعت من يذكر أنه توفي سنة 105هـ، وهذا غلط وخطأ، ليس يمكن أن يكون ذلك كذلك، لا في سنه، ولا في روايته، وخمسة وتسعون أقرب

إلى الصواب، والله أعلم" (42).

ويقول في ترجمة (أبي سلمة بن عبد الرحمن): وكان ثقة فقيهاً، كثير الحديث، وتوفي أبو سلمة بالمدينة سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وهذا أثبت من قول من قال: إنه توفي سنة أربع ومائة" (43).

وقد يحدد ابن سعد الزمان ببعض العبارات، كقوله: كان قديم الإسلام، وقتل بالقادسية (44)، أو قوله: وهو قديم الإسلام بمكة (45)، أو قوله: قتل سلمة بن هشام بمرج الصفر شهيداً في المحرم سنة 14هـ، وذلك في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه- (46)، أو قوله: وقتل يوم اليرموك شهيداً في رجب سنة خمس عشرة (47).

والملاحظ أن محمد بن سعد اتخذ حقبة زمنية طويلة، امتدت من حياة النبي صلى الله عليه وسلم-، والصحابة والتابعين، وتابعي التابعين إلى عصره، ويظهر أن بعض التراجم من صنع تلميذه: الحارث بن أسامة، والحسين بن فهم، ذلك أننا نجد بعض الأشخاص المترجم لهم توفوا سنة 230هـ، وهي السنة التي توفي فيها المؤلف، ومن ذلك أنه ذكر أن علي بن الجعد توفي في سنة 230هـ، والحكم بن موسى البزاز توفي سنة 232هـ، وعبد الجبار بن عاصم وعبد الله بن عمر ماتا سنة 233هـ، ومحمد بن أبي بن علي، وعلي بن عبد الله بن جعفر وزهير بن حرب ماتوا سنة 234هـ، ومنصور بن بشير، وشجاع بن مخلد ماتا سنة 235هـ، ومحمد بن بكار، ويحيى بن عثمان ماتا سنة 238هـ.

ومن الواضح أن هؤلاء لم يترجم لهم المؤلف بنفسه؛ لأنهم توفوا بعد وفاته أو في السنة التي توفي فيها، ومن ذلك أننا نجد في الكتاب المطبوع ترجمة للمؤلف نفسه: محمد ابن سعد صاحب الواقدي ... وتوفي ببغداد يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة 230هـ، وهو الذي ألف هذا الكتاب، كتاب الطبقات (48)، وهذا يدل على أن تلاميذه هم الذين ترجموا له بعد وفاته، عند جمع الكتاب.

إن مسألة الزمن وحدها ليست ضابطاً لوضع الرجل في طبقة معينة، وإنما هي مسألة تقريبية، بحيث لا نجد فرقاً كبيراً في تاريخ وفاة رجل من طبقة معينة، وبين رجل توفي في السنة نفسها من الطبقة التي تليها، وإنما يعود التصنيف إلى أمر آخر، قد يرجع إلى سلوك الفرد وتقواه أو إلى علمه، ولكثرة ما روى من الأحاديث، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: -

- أنه جعل مصعب بن سعد بن أبي وقاص (49)، في الطبقة الأولى، وأبا بردة بن أبي موسى الأشعري (50)، في الطبقة الثانية، وكلاهما توفي سنة 103هـ، وقال في ترجمة الأول: "وكان ثقة كثير الحديث".

- أنه جعل حسين بن علي الجعفي (51)، في الطبقة السابعة وزيد بن الحباب العكلي (52)، في الطبقة الثامنة، وكلاهما توفي سنة 203هـ، إلا أننا نجده يقول في الثاني: كان عابداً ناسكاً، له فضل، قارئاً للقرآن".

- أنه جعل الأعمش (53)، في الطبقة الرابعة، وأبا جناب الكلبي (54)، في الطبقة الخامسة، وكلاهما توفي سنة 147هـ، وقال في الأول: "وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث" وقال في الثاني: "وكان ضعيفاً في الحديث"، ومن هذا يظهر أنه لا ينظر إلى الزمان وحده، ويجعله مقياساً للتضييق.

وللزمان أثر فعّال في حياة الشعراء لاحظ ذلك ابن سلام، وقسم الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين، وتكرر عنده هذه الثنائية في كثير من المواضع من الكتاب، فهو يقول: كان علماءنا يقولون: أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرمة (55)، ويقول: سحيم بن وثيل الرياحي، شريف مشهور الأمر في الجاهلية والإسلام (56)، ويقول: وكان أمية بن حرثان بن الأسكر قديماً، وعمر في الجاهلية عمراً طويلاً، وألفاه الإسلام هرماً، وله شعر في الجاهلية، وشعر في الإسلام (57)، ويقول: وأخبرني يونس كالمتعجب: أن ابن أبي إسحاق كان يقول أشعر أهل الجاهلية مرقش، وأشعر أهل الإسلام كثير، وعلق على هذا الخبر بقوله: "ولم يقبل هذا القول ولم يُشيع" (58)، وعلق ابن رشيقي على قول ابن سلام بقوله: "وهذا غلو مفرط، غير أنهم مجمعون على أنه أول من أطال المدح" (59)، ويقول ابن سلام عن الحطيئة: وكان الحطيئة قد عمر دهرًا في الجاهلية وبقي في الإسلام حيناً (60).

وقد يذكر الخير، ويستشهد بالشعر الذي يؤرخ للمسألة، كقوله عن النابغة الجعدي: وكان النابغة قديماً، شاعراً مفلحاً، طويل البقاء في الجاهلية والإسلام، وكان أكبر من النابغة الذبياني، يدل على ذلك قوله (61):

من الفتیان أيام الخنان

فمن يك سائلاً عني فإني

وعشر بعد ذاك وحجتان

أتت مئة لعام ولدت فيه

كما تبقي من السيف اليماني

وقد أبقت خطوب الدهر مني

وقد يؤرخ ببعض الغزوات والأحداث، كقوله عن كعب بن زهير: وكان أخو كعب ابن زهير أسلم وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم - فتح مكة وحيناً (62)، ويقول عن خدّاش ابن زهير: "وكان يهجو قريشاً، ويقال: إن أباه قتلته قريش أيام الفجار" (63)، ويقول: وكعب يقول في عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وقتل بصفين، وهو مع معاوية قتلته بنو شيبان (64)، ويقول عن المتوكل الليثي: وكان كوفياً وكان في عصر معاوية (65)، ويقول عن كعب بن جعيل: شاعر مفلح، قديم في أول الإسلام، أقدم من الأخطل والقطامي، وقد لحقاه، وكانا معه (66).

والغريب في الأمر أنه جعل بشامة بن الغدير وقراد بن حنش من ضمن الطبقة الثامنة من الإسلاميين، وهما شاعران جاهليان معاصران لزهير بن أبي سلمى، وزهير ابن أخت بشامة بن الغدير، قال ابن سلام: فلما حضره الموت، ولم يكن له ولد قسم ماله بين إخوته وبني أخيه وأقاربه، فقال له زهير: ماذا قسمت لي يا خالاه؟ قال: أفضل ذلك كله! قال: ما

هو؟ قال: شعري، فيزعم من زعم أن زهيراً جاءه الشعر من قبل بشامة ابن الغدير (67)، ويرى ابن سلام أيضاً أن شعراء غطفان كانت تغير على شعره فتأخذه وتدعيه، ومنهم زهير بن أبي سلمى (68)، ولم ندر ما السبب الذي جعل ابن سلام يجعلهما في طبقة واحدة مع عقيل بن علفة، وشبيب بن الرصاء!

فإذا قارنا الضابط الزماني عند العلماء فإننا نجد فرقاً شاسعاً جداً بين المحدثين والنحويين والأدباء، فالمحدثون يدققون جداً، فيذكرون زمن ولادة الشخص وزمان وفاته ومكانه بدقة متفانية، ولعل حرصهم على هذا يعود إلى ضبط حال الرواة الذين يروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما الأدباء فلا نجد عندهم مثل هذه الدقة في المنهج التاريخي، فهم يذكرون التاريخ لكن بصفة عابرة، بقدر ما يخدم الهدف الأدبي، مثل ما رأينا عند ابن سلام، وأما ذكر زمن ولادة الشاعر ومكانها، وزمان وفاته ومكانها، فذلك شيء لم يشيروا إليه إلا نادراً، فلا نجده عند ابن سلام، ولا عند ابن قتيبة، ولا نجده أيضاً عند الأمدي والمرزباني والأصبهاني.

والملاحظ أن الترجمة عند ابن سلام تبتدى بامرئ القيس، وتنتهي بالترجمة للشاعر القحيف العقيلي، المتوفى سنة 130هـ، فالفارق بين آخر شاعر ترجم له، وحياء المؤلف مائة سنة، كاملة، ولعل السبب في ذلك أن يترجم للشعراء الذين يستشهد بشعرهم في اللغة والنحو وفي كتاب الله تعالى.

د) ضابط المكان:

اهتم العلماء بمعرفة أوطان الرواة والشعراء وبلدانهم، وهذا العلم يعتني به علماء النحو والأدب والحديث، يفتقرون إليه في كثير من تصرفاتهم، وله فوائد متعددة، منها: معرفة شيخ الراوي، وتعيين شخصه، وتمييزه عن يشبهه، ومعرفة بيئة الشاعر وأثرها في لغته.

فأبو بكر الزبيدي راعى المكان، وبدأ بالترجمة لعلماء البصرة والكوفة، ثم لعلماء مصر والقيروان والأندلس على هذا الترتيب، مبتدئاً بالنهاة أولاً وباللغويين ثانياً، وراعى الأسبقية في العلم، قال في مقدمة كتابه: "نبدأ بذكر النحويين على طبقاتهم واللغويين بعدهم، ونقدم البصريين من كلتا الطبقتين لتقدمهم في علم العربية، وسبقهم إلى التأليف فيها" (69).

وأما ابن سعد فقد راعى عنصر المكان، ولاحظ أن الصحابة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تفرقوا في القرى والأمصار، وكان عددهم كثيراً، وترجم لهم على حسب الأمصار التي حلوا بها، مبتدئاً بالمدينة المنورة، ولعله راعى أنها مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها "دار السنة" فيها نشأ الحديث نشأته الأولى، وفيها كان كبار الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وقصدهم التابعون ليأخذوا من أفواههم بالتلقين، فاتسم الحديث بالطابع الإقليمي، وبعد ترجمته للصحابة من أهل المدينة ترجم لمن جاء بعدهم من

التابعين وتابعيهم، وجعلهم في سبع طبقات، ثم ترجم لمن نزل مكة والطائف واليمن واليامة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر بعد الصحابة من جاء بعدهم من التابعين.

ثم ترجم لمن نزل الكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبتدئاً بعلي ابن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، بعد تمهيد تعرّض فيه لفضائل الكوفة، وما قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كقوله لما كتب إليهم: إلى رأس أهل الإسلام، وقوله: إلى رأس العرب، وقوله: أهل الكوفة رمح الله، وكنز الإيمان، وجمجمة العرب ثم ترجم لمن نزل البصرة والشام ومصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر بعد هؤلاء من جاء بعد الصحابة من التابعين وتابعيهم، فجعل أهل الكوفة في تسع طبقات، وأهل البصرة والشام في ثمان، وأهل مصر في ست.

إن اختيار الأماكن وترتيبها يخضع لوجود الصحابة بها، فمفهوم "الطبقة" عند المحدثين هي القوم المنتشبهون في السن وفي لقاء الشيوخ، ولقاء الشيوخ يتم داخل الأماكن التي نزل بها الصحابة، وأوائل الصحابة وكبارهم كانوا بالمدينة، لهذا السبب ابتداء ابن سعد بالترجمة لأهلها، ولما قسم المحدثون رواة الحديث إلى طبقات جاءت فسمتهم اصطلاحية، فمنهم من عدّ الصحابة كلهم طبقة واحدة، وجعل التابعين بعدهم طبقة ثانية، ثم الذين بعدهم طبقة ثالثة، واستشهدوا على هذا التقسيم بقوله عليه الصلاة والسلام: "خير القرون قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذين يلونهم" (70)، وقد أظهر هذا التقسيم الذي سار عليه ابن سعد عيوباً:

منها أن الشخص الواحد قد يكون بدرياً، ثم يصبح بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كوفياً أو بصرياً أو شامياً أو مصرياً، فيترجم له مرتين أو أكثر، لهذا نراه يطيل الترجمة في موضع، ويوجز في موضع آخر، ومن هذا أنه ترجم لابن رواحة ضمن طبقات البدريين من الأنصار أولاً، ثم ترجم له ضمن النقباء الاثني عشر رجلاً من الأنصار ليلة العقبة بمنى، إلا أنه نبّه في آخر الترجمة الثانية بقوله: "وقد كتبنا أمره فيمن شهد بدرًا من بني الحارث بن الخزرج" (71).

ومن هنا أن الباحث يصعب عليه العثور على ما يريد، ذلك أن المؤلف لم يرتّب الأعلام ترتيباً ألف بائي، ليسهل البحث فيه؛ لهذا كان على الباحث أن يكون على علم بتقلبات الصحابة في الأقطار، فمن أراد مثلاً أن يبحث على ترجمة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عليه أن يبحث عنه فيمن ترجم لهم ضمن البدريين، وضمن من نزل الكوفة، وهذا يتعذر على كثير من التراجم، ولعل هذا كان من حرص المؤلف على متابعة حياة الأشخاص، وظروف معيشتهم، ورحلاتهم، وأثر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- فيهم، وفي نشر الحديث في الأقاليم.

وتدخل عنصر المكان في طبقات ابن سلام، فقد راعى فيه أثر البيئة في الإبداع الشعري، وقسم الشعراء الجاهليين إلى بادين وحاضرين، مؤمناً بأن الشعر الجاهلي شعر بادية، وقديماً قال زهير للنابغة الذبياني: "أخرج إلى البرية فإن الشعر بري" (72). وخصص

لبعض الشعراء تراجع على حسب أماكنهم إقامتهم، حيث وضع شعراء مكة والمدينة والطائف والبحرين كل في مكانه، وبذلك فصل بين شعراء البادية وشعراء القرى، وهذا التقسيم أظهر بعض العيوب منها: أننا لا نعرف طبقة حسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم مثلاً، وهما من كبار الشعراء بين سائر الطبقات الأخرى، ومنها أنه كسر القاعدة التي بنى عليها الكتاب، وهي أربعة شعراء في كل طبقة، ثم لماذا حصر الحديث عن شعراء هذه القرى دون غيرها؟

تحدث ابن سلام عن شعراء القرى العربية، وحددها في خمس؛ هي: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين، أشعرهن قرية المدينة، شعراؤها الفحول خمسة: ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس، ويسمى هؤلاء طبقة، طبقة، يقول عن عبد الله بن رواحة: "عظيم القدر في قومه، سيد في الجاهلية، ليس في طبقة التي ذكرنا أسود منه (73)، ونحن نعرف أن شعراء المدينة خمسة، لا أربعة.

وبمكة شعراء، فأبرعهم شعراً تسعة" وكان مما تتكرر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضاً" (74). وأشعار قريش أشعار فيها لين، فتشكل بعض الأشكال (75).

وبالطائف شعر وليس بالكثير، وشعراؤه خمسة، "وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان" (76). وهذه ملاحظة دقيقة، يريد ابن سلام أن يوضح أثر البيئة في الشعر والشعراء، فالشعر يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، وطبيعة الشعر الجاهلي في جملته شعر فخر وقتال وغارات وحروب، وهذه أمور تكثر في البادية.

وقال: وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة، وذكر منهم ثلاثة شعراء (77).

وقال: ولا أعرف باليمامة شاعراً مذكوراً (78).

وقال: وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جيد، وذكر منهم ثمانية شعراء.

وهذا كله يدل على أثر البيئة في الشعر والشعراء، فقد لاحظ ليونة شعر القرى، وجزالة شعر البادية، فشعر مكة والمدينة ليس كشعر أسد وغطفان، وبني تميم، وشعر اليمامة والطائف والبحرين ليس كشعر مكة والمدينة، و"عدي بن زيد كان يسكن الحيرة، ويركن الريف، فلان لسانه، وسهل منطقته، فحمل عليه شيء كثير" (79)، قيل: كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة، فكان عدي بن زيد يسمع لغاتهم، فيدخلها في شعره (80)، وقال الأصمعي: عدي بن زيد وأبو داود الأيادي لا تروى أشعارهما؛ لأن ألفاظهما ليست بنجدية (81).

لقد تعددت الطبقات لتنوع الاعتبارات، واختلاف وجهات النظر في التقسيم، وكان لكثير من البيئات أثر في نشأة نوع العلوم، وكثرة العلماء بها، وتفوق بعضهم على بعض، فقد

اجتمع العلماء بمكة، وتذاكروا أمر العلماء، وجعل كل بلد يرفعون علماءهم، ويصفونهم، ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها(82)، واشتهر في علم العربية موطنان: البصرة والكوفة، فالعلماء هناك تركوا كتباً، وإليهم يرجع في علم العرب، والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع، ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في دواوينهم(83)، وكان بها جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره، كانوا يصنعون الشعر، ويقتنون المصنوع منه، وينسبونه إلى غير أهله(84)، وبعض رجالها ليس لهم حظ من العلم ومن هؤلاء حمزة بن حبيب الزيات، كان يعظمه أهل الكوفة، ويتخذونه إماماً معظماً مقدماً، وأما عند البصريين، فلا قدر له، كان يلحن في القرآن، ولا يعقله(85)، وكانوا يعظمون أبا جعفر الرؤاسي، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءاتهم مأخوذ عنه، وهو مطروح العلم ليس بشيء عند البصريين، قال المبرد: وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو، فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا، فما التفت إليه، ولم يجسر على إظهاره لما سمع كلامهم(86)، لهذا السبب كان أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين، وأهل البصرة يمتنعون عن الأخذ عنهم؛ لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة(87).

وأما مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا نعلم بها إماماً في العربية، قال الأصمعي: أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة(88)، وكان ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر بالمدينة، وينسبه إلى الأعراب(89)، وأما مكة فكان بها رجل من الموالي، يقال له: "ابن قسطنطين" وضع كتاباً في النحو لا يساوي شيئاً(90)، لأن المدينتين تخصصتا في علم التفسير والحديث والفقهاء.

وأما بغداد فمدينة ملك، وليست بمدينة علم، وما فيها من العلم فمنقول إليها، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم، قال أبو حاتم: أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من ترضى روايته(91).

وفي الأخير؛ أقول: إن علم طبقات الرجال علم تميّز به العرب، وهو بناء أسسوه، وأحسنوا تشييده، وأما أحفاد العرب الآن فلم يحسنوا المحافظة على هذا البناء العظيم، وإنما أضاعوه، وعرضوه للهدم والتخريب.

الهوامش

(* أستاذ بجامعة فاس، كلية الآداب.

1 - سورة نوح، الآية 15.

2 - النهاية في غريب الحديث.

3 - نفسه.

- 4 – نفسه.
- 5 – أساس البلاغة.
- 6 – سورة الانشقاق، الآية 15.
- 7 – المزهري 2/395.
- 8 – الشعر والشعراء، ص 59.
- 9 – كتابة الزينة 1/116.
- 10 – مقدمة ابن الصلاح ص 197.
- 11 – الاستيعاب 1/1.
- 12 – إنباه الرواة 1/44.
- 13 – الشعر والشعراء، ص 105.
- 14 – العمدة، ص 233.
- 15 – الشعر والشعراء، ص 753 وهامش 3.
- 16 – المزهري 2/302.
- 17 – المزهري 2/302.
- 18 – المزهري 2/302.
- 19 – الخصائص 3/245.
- 20 – المزهري 2/396.
- 21 – سورة التوبة الآية 100.
- 22 – كشف الظنون 1/1143.
- 23 – مسند الإمام أحمد 3/19، ص 61.
- 24 – طبقات الحنابلة 1/238.
- 25 – مراتب النحويين ص 19.
- 26 – مراتب النحويين ص 21.
- 27 – مراتب النحويين ص 21.
- 28 – طبقات فحول الشعراء ص 24.

- 29 – طبقات فحول الشعراء ص 137.
- 30 – طبقات فحول الشعراء ص 147.
- 31 – طبقات فحول الشعراء ص 97.
- 32 – البيان والتبيين 2/9.
- 33 – طبقات فحول الشعراء ص 50.
- 34 – طبقات فحول الشعراء ص 50 .
- 35 – إنباه الرواة 2/382.
- 36 – نفسه 3/338.
- 37 – نفسه 2/104.
- 38 – مقدمة ابن الصلاح ص 189.
- 39 – نفسه ص 190.
- 40 – الطبقات الكبرى 4/261-268.
- 41 – الطبقات الكبرى 5/154.
- 42 – الطبقات الكبرى 5/154.
- 43 – الطبقات الكبرى 5/157.
- 44 – الطبقات الكبرى 4/128.
- 45 – الطبقات الكبرى 4/130.
- 46 – الطبقات الكبرى 4/131.
- 47 – الطبقات الكبرى 4/139.
- 48 – الطبقات الكبرى 7/264.
- 49 – الطبقات الكبرى 6/222.
- 50 – الطبقات الكبرى 6/268.
- 51 – الطبقات الكبرى 6/396.
- 52 – الطبقات الكبرى 6/403.

- 53 – الطبقات الكبرى 6/342.
- 54 – الطبقات الكبرى 6/360.
- 55 – الطبقات فحول الشعراء ص 549.
- 56 – الطبقات فحول الشعراء ص 576.
- 57 – الطبقات فحول الشعراء ص 190.
- 58 – الطبقات فحول الشعراء ص 52.
- 59 – العمدة ص 208.
- 60 – طبقات فحول الشعراء ص 110.
- 61 – طبقات فحول الشعراء ص 124.
- 62 – طبقات فحول الشعراء ص 99.
- 63 – طبقات فحول الشعراء ص 144.
- 64 – طبقات فحول الشعراء ص 575.
- 65 – طبقات فحول الشعراء ص 681.
- 66 – طبقات فحول الشعراء ص 572.
- 67 – طبقات فحول الشعراء ص 719.
- 68 – طبقات فحول الشعراء ص 733.
- 69 – طبقات النحويين واللغويين ص 18.
- 70 – الاستيعاب 1/12.
- 71 – الطبقات الكبرى 3/613.
- 72 – الموشح ص 59.
- 73 – طبقات فحول الشعراء ص 223.
- 74 – طبقات فحول الشعراء ص 236.
- 75 – طبقات فحول الشعراء ص 245.
- 76 – طبقات فحول الشعراء ص 259.
- 77 – طبقات فحول الشعراء ص 271.

- 78 – طبقات فحول الشعراء ص 277.
- 79 – طبقات فحول الشعراء ص 140.
- 80 – الموشح ص 92.
- 81 – الموشح ص 238.
- 82 – مراتب النحويين ص 55.
- 83 – مراتب النحويين ص 119، والمزهر 2/407.
- 84 – مراتب النحويين ص 117، والمزهر 2/406.
- 85 – مراتب النحويين ص 52.
- 86 – مراتب النحويين ص 48، وإنباه الرواة 4/108، والمزهر 2/400.
- 87 – مراتب النحويين ص 143، والمزهر 2/410.
- 88 – مراتب النحويين ص 156.
- 89 – مراتب النحويين ص 156، والمزهر 2/402.
- 90 – مراتب النحويين، ص 159.
- 91 – مراتب النحويين، ص 160، والمزهر 2/414.